جبران خليل جبران

أرباب الأرض



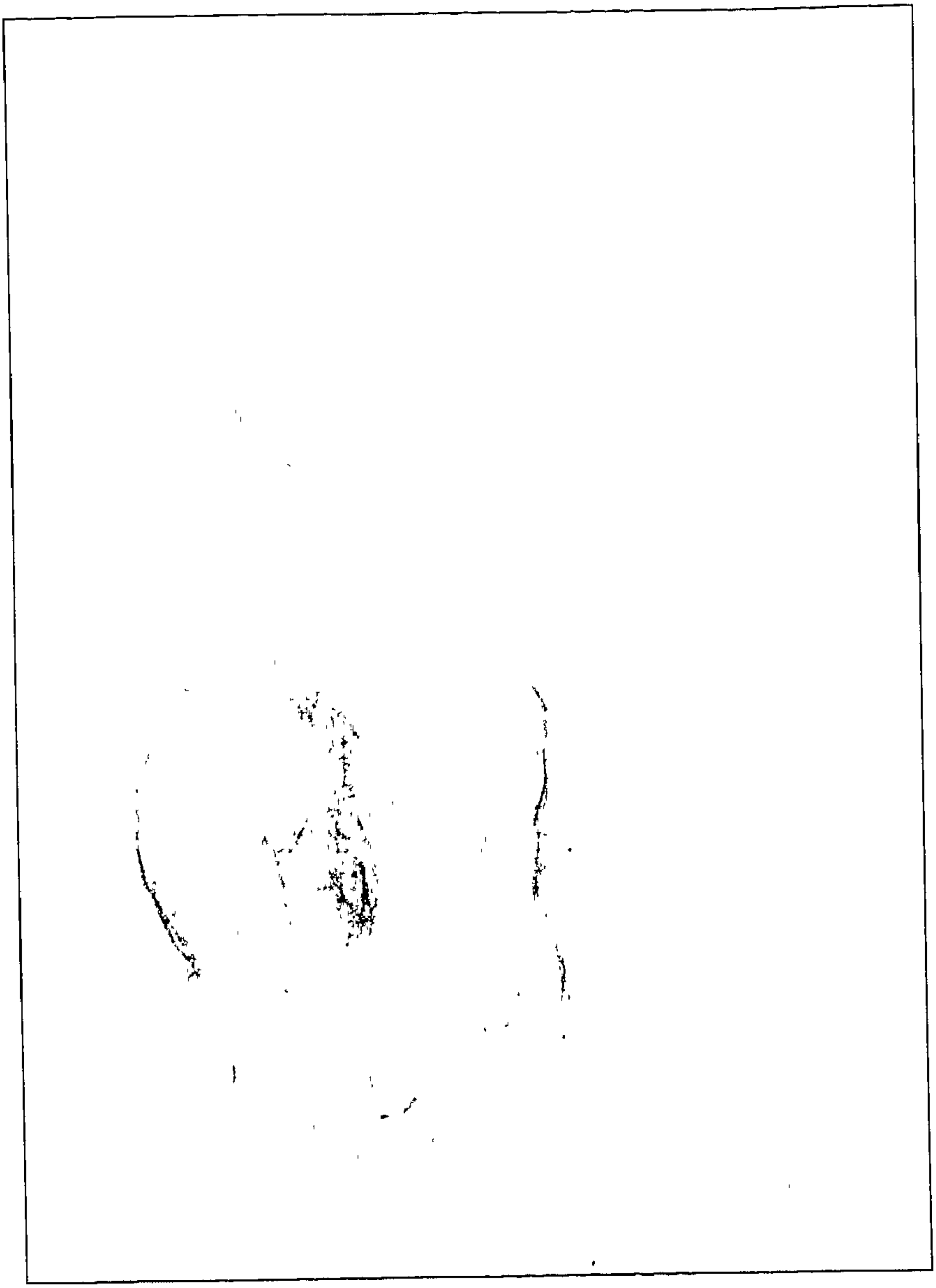
ثروت عكاشة

دار الشروق

اللوحات المصورة لجبران خليل جبران

لوحه الغلاف الخلفية : **للفنان صلاح طاهر**

الإخراج الفنى : **مجدى عز الدين**



"الذات الكونيّة وضلعا الوجود"

تقـــديـم

هذا الكتـاب آخر صيـحة لفظهـا « جبـران خليل جبـران » قبـل أن يلفظ أنفـاسـه الأخيـرة ، فـترك به لنا صـفـحـات أغنى مـا تكـون بالرأي ، وأحـفل مـا تكون بـالفكر ، وأزخـر مـا تكـون بالـصـراع الـذي تضطرم به الـنفس الإنسـانيـة . ولقـد أملى جبـران هذا كلـه بعـد أن استـوى لـه فكـره ؛ لـذا كـان هذا الكتاب من أهم ما يعني الدارسين لحياته .

وفي هـذه الصـيحـة الأخـيرة « أربـاب الأرض » ختـم « جبـران خليـل جبـران » مطافه بأرباب ثلاثة أو قُوى ثلاثة سَمَت في حياة الشاعر إلى منزلة الأرباب قوة وقدرة ، فـأذلّت الإنسان لجبروتها ، وجشّمته أن يحيا في صـراع مع نفسه ومع القـوى الخـارجيـة المحيطة بـه ، ثم تُكتب له الغلبـة في نفـسـه لـربّ من هؤلاء الأرباب فينقاد له . غير أن الصراع يعود أشدّ مما كان ، فيقهره ربّ ثان على أمره فيذلّ له ، ثم إذا الـثالث يقتـحـم عليه حيـاته فيـدهمـه بسطوة جـديدة باهرة . وإذا ثلاثتـهم فيـه يتـصـارعـون ، وإذا هذا الإنـسـان الـهـادئ الـوادع يبـدو وكـأنه سـاحـة لنضـال خـفيّ لا يفنى ، وميـدان لتنازع هؤلاء الأرباب نـزاعًـا لا تفـتـر حـدّتـه ولا تخفّ وطأته ولا تبدو نهايته . فلقد كان ثلاثتهم معنيّين بمصير ألوهيتهم ومصير الإنسـان من هـذه الألوهيـة ، على الرغم من أن المصـيـريْن ينتـهـيـان إلـى غـايـة واحـدة ؛ إذ ليس الأرباب الثلاثة غيـر صـور ثلاث لميـول ثلاثة كـامنة في طبيـعـة الإنسان، غير أنها مجسّدة .

أما عن القـوة الأولى ، أو الربّ الأول في تعبير جبران ، فهـو عبـوس أثقلته

دهورٌ من الحكم والسلطان جعلته يسأم الوجود ويزهد في النفوذ ، فأخذ ينشد العدم ، إنها مرارة اليأس عندما يقتحم هذا اليأس على الإنسان نفسه . استمع إليه وهو يقول :

«ألا ما أضجر روحي بكل ما هو موجود .
لن أحَرِّكَ ساكنًا لخلق عالم أو لمحو آخر .
لو كنت أملكُ الموت ما رضيتُ الحياة .
فعبء الدهور يُثقل كاهلي ،
وولولة البحار التي لا تنقطع تُزعج غفْوتي.
لو أنني تحلّلت من الغاية البدائية ،
وتلاشيتُ كشعاع الشمس المبدَّد .
لو أنني خلعتُ عن ربوبيتي هدفها ،
ولفظت خلودي في الفضاء ،
فلم أك شيئًا.
لو أني فنيتُ وخرجتُ عن ذاكرة الزمان ،
إلى خواء اللاوجود ! »

وأما عن الربّ الثاني عند « جبران » ، فهو على النقيض من الرب الأول : عملاق طموح لا تفتأ نزعته للنفوذ جامحة ، ولا تزال رغبته في ممارسة السلطات عارمة . يسخر من الرب الأول فيقول :

« أقتلعُ الإنسان من الظلمة الخفيّة ،
ومع ذلك أترك جذوره عالقة في الأرض ،
أمنحهُ الظمأ إلى الحياة وأجعل الموت حامل كأسه ،

وأهِبُه الحب الذي ينتعش بالألم ، ويعظُم بالرغبة ،
وينمو بالحنين ، ويخبو مع العناق الأول .
أحوط لياليه بأحلام الأيام السّامية ،
وأشيع في أيامه رؤى ليال مباركة .
ومع ذلك أجمع أيامه إلى لياليه برباط سريانهما الرتيب
كي أجعل خياله نَسرا من نسور الجبال،
وأفكاره عاصفة من عواصف البحار.
ومع ذلك، أَهِبُه يَدَيْن فاترتيْن عند العزم، وقدمْين يُثقْلهما التَّرَوِّي.
أمنحه بِشْرًا عساه يُغنيه بين أيدينا،
وهمًا عساه يفزعُ به إلينا
حينما تضجّ الأرض في سغبها وهي تنزع إلى الطعام.
كي أسمو بروحه فوق القبة الزرقاء
عساه يذّكّر مذاق غدنا ،
وأجعل جسده يتمرّغ في الوحل،
لعله لا ينسى أمسه.

وبعد ذلك يأتي الربّ الثالث ، أو المتحمّس ، أو الأصغر كما يقول جبران . وهذا الربّ يؤمن بالحب وحده سلطانًا ، وهو إله مدلّل لأنه أوْلى بالعظمة دون غيره من الآلهة . إن الحب لديه هو الحقيقة الجوهرية في الحياة ، وجبران هنا يعيد ما سبق له في كتابه « المواكب » غير أنه يخالفه في أن الحب الذي يعنيه ليس الحب العام أو وحدة الوجود بل هو حب خاص : حب الرجل للمرأة . ويختم قصيدته بهذه النغمة : « ثم لندع الحب الذي هو إنْسيّ والذي هو واهن يُملي

إملاءه على اليوم التالي » . إن الإله الأول والإله الثاني يتنافران ويتناقضان ولا يُعيران أول الأمر كلمات هذا الإله التفاتا ، لكن هذا الإله يمضي في إثر الإله الثاني إلى أن يضمّه إلى رأيه ويحمله على الاقتناع بأن الحقيقة إنما تكمن في الحب ، تاركا الإله الأول يتخبّط في ظلمات العدم . ويختم الرب الثالث الجدل بقوله :

لنعبرنَّ إلى الشَّفق المترامي ،

فلقد نستيقظ على فجر عالم آخر .

لكن الحب باق ،

وبصماته لن تزول .

ومع هذا النصر الذي يفوز به الحب فإنك تجد النغمة التي تسود القصيدة كلها نغمة تقطر بالكآبة والتأمل في الموت الذي هو الحقيقة التي لاتموت . وإنّا لنرى جبران في هذا لم يضم جديدا إلى ما سبقه إليه غيره ممن تقدّموه ، وإنّا لنلاحظ ملاحظة عابرة أن الإنسان الذي تخيّله جبران على هذا المستوى الكوني يدين شيئا إلى قصائد وليم بليك التربوية والرمزية مثل « ڤالا » و « رؤى بنات آلبيون » حيث القوى الكونية والآلهة تمثّل عناصر النفس البشرية ، غير أن العنصر التاريخي الواضح في قصائد بليك يكاد يكون مفقوداً لدى جبران .

على أن قصة تأليف هذا الكتاب تبدو غريبة شيئا . فقد صدر كما يعترف صاحبه : « من جحيم الشاعر ، بعد حَمْل وولادة » . وكان جبران كما تقول صديقته بربارا يانج قد انتهى من ثلثي هذا الكتاب فى نيويورك عام ١٩١٤ ـ ١٩١٥ محاولا أن يجرّب التعبير عما يحسّه باللغة الإنجليزية توّاً . لكنه تركه قرابة عشر سنوات ، كما ترك من قبله كتابه « النبي » . غير أن ميخائيل نعيمه يعتقد أنه لم يشرع في هذا الكتاب إلا بعد أن فرغ من كتابه « عيسى ابن

الإنسان» ، على حين يذهب خليل حاوي إلى أن كليهما لم يُشهَد له بتحرّي الدقة عند ذكر التواريخ ، وأنه من المحتمل أن جبران لم يشرع في مؤلّفه هذا في مثل هذا التاريخ المبكر ، وأن هذا الكتاب يرجع إلى فترة من حياته كانت نفسه فيها تعاني همّ الوحدة والبلبلة قبل أن يعرف الحب الذي بدأ يُدخل السكينة إلى قلبه والأنفة إلى نفسه .

وتروي صديقته « بربارا يانج » أنه بعد ما ظهر كتابه « عيسى ابن الإنسان » بأكثر من عام عرض عليها في استحياء مخطوطة كتابه «أرباب الأرض» وهو يتمتم في صوت هامس : «سننتهي منه ذات يوم إذا وجدناه جديرا بأن يخطّ نهايته » . لكن صديقته ، بعد أن سمعته يرتّل منه فقرات ، أخذت تحثّه على أن يتمّه . وأخذ هو يقاوم رغبتها ، لكنه لان أخيرا لرأيها ، فانبرى يتمّه دون تلبّث ، وكأنه لم يهجره إلا أمس . وكان أول ما استأنف به الكتاب الحديث عن الربّ الثاني وهو يقول :

أبِيْنَا أن نكون وأن ننهض وأن نَصْلَى بالشمس المُحْرقة ،
ثم أبِينَا أن نعيش ونرقب ليالي الأحياء كما ترقبنا عين الجوزاء !
ثم أبِيْنَا أن نواجه الرياح الأربع برأس متوّج متعال ،
وأن نُبْرِئ الإنسان من أمراضه بأنفاسنا التي لا شهيق لها ولا زفير؟
صانع الخيام يجلس إلى منواله في وجوم ،
وصانع الفخار يدير عجلته غير مبال،
أما نحن ذوي اليقظة وذوي العلم ،
فقد أفلتنا من الحدس ومن المصادفة .
نحن لا نكفّ، بل لا نسكن سكينة مَنْ ينتظرون توارد الأفكار،

ونحن أسمَى من كل التساؤلات القلقة.

فاهنأ بالأ ودَعْ الأحلام تجري في أعنّتها.

ولْنَخَلّ بيننا كالأنهار تصبّ في المحيطات ،

لا تجرحها أسنّة الصخور.

وعندما نبلغ من المحيط لُجَّة فيبتلعنا ،

لن يكون ثمة مجال للخصام والتفكير في غدٍ .

أما عن مطلع هذه القصيدة كلها فقد بلغ حدّا من السّمو يصعب أن نجد له وصفًا :

حين أرخى ليلُ الدّهر الثاني عشر سدوله ،

والتلال طواها السكون ، ذاك المدّ الأعلى في بحر الليل ،

تجلّى فوق الجبال أربابٌ ثلاثة ولدتهم الأرض

هم عمالقة سادوا الحياة.

فُجّرت الأنهار تحت أقدامهم،

وخاض الضباب في صدورهم،

وتطاولت رؤوسهم في جلال على العالم من علٍ.

وعندها تكلموا ،

وكالرعد البعيد ،دوّت أصواتهم عَبْر السهول

لقد كان جبران يحسّ حنينًا خاصًا إلى هذا الكتاب ، ربما لم يحسّه إلى أيْ كتاب آخر من كتبه ، إذ كان كما قلنا هو آخر ما ظهر لجبران قبل أن يودّع الحياة . وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بأسبوعين تسلّم نسخة منه متّشحة

بالسواد. ومضى يقلّب صفحاتها متأملا، ثم راح يطالع بصوت مسموع تتخلّله رقة حانية وكأنه يخاطب نفسه، وكأن صوته آت من مكان عميق بعيد :

لنعبرنّ إلى الشَّفق المترامي ،
فلقد نستيقظ على فجر عالم جديد.
لكن الحب باق ،
وبصماته لن تزول.
إن المِصهر المبارك يضطرم ،
وإن الشَّرر يتطاير ،
وفي كل شرارة شمس .
أوْلى بنا وأَحْجَى أن نسعى إلى ركن في الجبل ظليل
لنهجع ونحن أرباب الأرض.
ثم لندعْ الحب الذي هو إنسّي والذي هو واهن ،
يُمْلي إملاءه على ما سيأتي غدًا .

إن « جبران خليل جبران » في كتابه « أرباب الأرض » قد امتُحن بألوان من الصراع الخفيّ الذي يدور في نفس الإنسان ، وأجرى بين هذه الألوان نوعًا من الجدل يتبادله الأرباب في لون من ألوان القصيد يمكن أن يكون ملحمة شعرية فيها حياة وفيها صراع ، وفيها إلى كل هذا متعة . فهو يعرض رأيه في الإنسان عندما تتقاسمه هذه النوازع ، ويخرّ صريعًا لصراع الأرباب فى أعماق نفسه . ولا شك أنها محاولة جريئة من جبران أن يبلغ الأعماق من نفسه البشرية ، وهو لم يبلغ هذا إلاّ بعد أن انتهى إلى حال من الشّفافية مكّنته من أن يدرك مداخل هذا الصراع في نفسه .

تُرى هل أراد جبران أن يقدّم كتابه هذا نموذجًا للمتصوّفة يتأملون فيه؟ أم هي أحلام حالم شارد تفيض بالرموز الغامضة ذات الأسرار ؟

إنه على أية حال كتاب انطوى على فيض من الجمال الموقّع بل نحرص على إضافته إلى المكتبة الأدبية العربية في طبعة رابعة ، راجين فيها مكانته بينها . ولعلنا بهذا نكون قد أنصفنا الشاعر العربى الكبير « خليل جبران» .

أرباب الأرض

حين أرخى ليلُ الدهر الثاني عشر سدولَه ،

والتلالُ طواها السكون، ذاك المدّ الأعلى في بحر الليل ،

تجلّى فوق الجبال أربابٌ ثلاثة ولَدَتْهم الأرض ،

هُم عمالقةٌ سادوا الحياة .

فُجِّرت الأنهار تحت أقدامهم ،

وخاض الضّبابُ في صدورهم ،

وتطاولت رؤوسهم في جلال على العالم من علٍ .

وعندها تكلّموا ،

وكالرعد البعيد دوّت أصواتهم عبْر السهول.

ــرب الأول | الريح تهبّ نحو المشرق .

وَددْتُ لو ولّيتُ وجهي قِبلَ الجنوب ،

فالريحُ تُقْحم نتَنَ الموتَى في صدري.

السـرب الثاني | إنها رائحة شواء اللحم اللّذيذ الشّهي ،
وَددْتُ لو تلقّيْتُها بأنفاسي .
السـرب الأول | إنها رائحة الرّدَى يحترق فوق شعلته الخافتة .
ما أثقلَها جاثمةً على متن الهواء،
وكأنفاس الجُبِّ المُقزِّزة
تستثير حواسي .
وَددْتُ لو ولّيتُ وجهي قِبَل الشمال حيث لا رائحة.
السـرب الثاني | إنها الأريجُ المتوهِّجُ للحياة الولاَّدة،
وبودّي أن أتَنسَّمَه الآن وإلى الأبد .
فالأرباب تحيا على القرابين .
الدم ينقعُ غلَّتها ،
وصرخات النفوس الغَضَّة تردّ السكينة إلى قلوبها ،
والزفرات الأبدية الصادرة عمّن يعايشون الرَّدى ،
تَصلِبُ قواهُم ؛
وعروشهم مشيّدةٌ فوق هشيم الأجيال .
السـرب الأول | ألا ما أضجَرَ روحي بكل ما هو موجود
لن أحرِّك ساكنًا لخَلْق عالمٍ أو لمحْو آخر.
لو كنت أملك الموت ما رَضيتُ الحياة ،
فعبء الدهور يُثقل كاهلي،

وولولة البحار التي لا تنقطع تزعج غفوتي .

لو أنني تحلّلت من الغاية البدائية،

وتلاشيْتُ كشعاع الشمس المبدّد.

لو أنني خلعت عن ربوبيّتي هدفها ولفظت خلُودي في الفضاء،

فلم أك شيئًا ؛

لو أنني فنيتُ وخرجت من ذاكرة الزمان

إلى خواء اللاوجود !

الـــرب الثالث أنْصِتا إليّ أخويّ ، وأنتما أخواي من قِدَم.

ثمة فتى في ذاك الوادي

يشدو بأسرار قلبه إلى الليل .

قيثارته من ذهب وآبنوس

وصوته من فضّة وذهب.

الـــرب الثاني لن يذهب بي العبث إلى أن أصبح كأن لم أكن.

حتمٌ عليّ أن أختار أشقّ الطرق؛

أقتفي أثر الفصول وأنهض بجلال السنين ،

وأنثر البذور وأرعاها وهي تشُقّ الثَّرى ،

وأستنهض الزهرة من مخدعها

وأهبُها القدرةَ لتحتضنَ عمرَها ،

ثم أقطفها حين تجلجلُ العاصفة ضاحكةً في الغابة .

أقتلعُ الإنسان من الظلمة الخفية ،
ومع ذلك أترك جذوره عالقة في الأرض.
أمنحه الظمأ إلى الحياة وأجعل الموت حامل كأسه ،
وأهبُه الحب الذي ينتعش بالألم ويعظُم بالشّوق ،
وينمو بالحنين ، ويخبو مع العناق الأول.
أحوط لياليه بأحلام الأيام السامية،
وأشيعُ في أيامه رؤى ليالٍ مباركة.
ومع ذلك أجمع أيامه إلى لياليه برباط سريانهما الرتيب ؛
كي أجعل خياله نَسرًا من نسور الجبال،
وأفكاره عاصفة من عواصف البحار.
ومع ذلك أَهبهُ يَديْن فاترتيْن عند العزم، وقدميْن يُثْقلهما التَّروِّي
أمنحه بِشْرًا عساه يتغنّى به بين أيدينا ،
وهمًّا عساه يفزع به إلينا ،
ثم أطرحه أرضًا ،
حينما تضجّ الأرض في سغبها وهي تنزع إلى الطعام.
وأسمو بروحه فوق القبّة الزرقاء
عساه يذّكّرُ مذاق غدنا ،
وأجعل جسده يتمرّغ في الوحل،
لعلَّه لا ينسى أمسه .

هكذا نسوس الإنسان إلى نهاية الزمن
متسلّطين على النّفَس الذي بدأ بصرخة أمه ،
وانتهى بالنواح الذي يندبه به أبناؤه.

الـــرب الأول إن قلبي ظمـآن ، وإني مع ذلك لا أرضى لنفسي أن أرشـف دمًا
رخيصًا لجنس هزيل
فالكأس ملوّثة ، وما فيها من خمر مذاقه مُرّ في فمي .
وإني على غرارِك عجنتُ الصلصال وصُغْتُ منه أشكالا تتنفّس
تقاطرت من عرق أصابعي صوب الأجمات والآكام.
وإني على غرارِك ، قد أنرتُ أغوار الحياة الأولى المظلمة ،
وراقبتها وهي تزحف من الكهوف إلى القمم الصخرية.
وإني على غرارك،أوحيتُ إلى الربيع أن يجعل من جماله شركًا
يُغري الشباب فيربط ما بينه ليتوالد ويتكاثر.
وإني على غرارِك قُدتُ الإنسان من محراب إلى محراب ،
وأحَلْتُ مخاوفه الصامتة مما لا يُرى إلى إيمان بنا قَلِق ،
نحن الذين لا يلمّ بساحتنا زائر ، ويَخْفَى أمرُنا على كل عابر .
وإني على غرارِك ركبتُ متن العاصفة الهائجة فوق رأسه
عساه يجثو أمامنا ،
وزَلْزلتُ الأرض من تحته حتى صاح بنا مستصرخًا.
وإني على غرارِك أطْلَقتُ المحيط العاتي على الجزيرة التي يأوي إليها،

إلى أن يلفظ أنفاسه وهو ينادينا مستغيثًا.
هذا كلّه فعلتُه ، وأكثر منه فعلت .
وكل ما فعلته كان خواء وهباء .
خواءٌ هي اليقظة ، هباء هو النوم ،
أقولُها ثلاثًا ، خواء وهباء هو الحلم .

السـرب الثالث

أخويّ ، أخويّ الجليلين ،
من تحتنا ، في غيضة الآس
فتاة ترقص تحيةً للقمر ،
يتخلّلُ ضفائرَ شعرِها ألفُ نجمٍ من قطرات الندى ،
ويُحيط بقدميْها ألف جناح.

السـرب الثاني

لقد زرعنا الإنسان .... كرمتنا ،
وَرَوَيْنا التُّربة في الضباب الأرجواني للفجر الأول،
وسهرنا على الأغصان الهزيلة وهي تنمو.
وخلال أيام السنين التي لا فصول لها
غَذَوْنا الأوراق الغضّة.
ومن العناصر المُهلكة وقَيْنا البراعم ،
ومن جميع الأرواح الخبيثة حَمَيْنا الزهرات.
وعلى الرغم من أن كرمتَنا قد طرحت أعنابَها ،
فلن تحملوه إلى المعصرة لتملأوا كؤوسكم.

فأيّة أيد أقدر من أيديكم ستحصد الكروم ؟

وأية غاية أنبل من ظمئكم تنتظر النبيذ ؟

إنما الإنسان طعام للأرباب ،

وليبدأن مجد الإنسان يوم ترشفُ شفاهُ الأرباب المقدّسة أنفاسَه اللاهثة.

كل ما هو إنسيّ هباء إذا ظل إنسيّا ؛

براءةُ الطفولة ونشوةُ الشباب العذبة ،

هَوَى الرجولة الصارمة وحكمة الشيخوخة المحنّكة ،

أبّهة الملوك وفوز المحاربين ،

نباهة الشعراء وشرف الحكّام والأولياء ، . .

كل هذا وما يحمله في ثناياه هو خبز للأرباب.

ثم هو على هذا خبزٌ غير مبارك،

إن لم يرفعه الأرباب إلى أفواههم.

وكما تستحيل الحبّة الخرساء أنشودة حُب عندما يزدردها البلبل،

كذلك الإنسان إذا استحال خبزاً للأرباب، فليتذوقنّ الربوبية .

وَيْ ، إن الإنسان طعامٌ للأرباب !

وكل ما هو إنسيّ سوف يحلّ على مائدة الأرباب الخالدة .

أوجاعُ الحَمْل وشدائد الولادة ،

صرخةُ الطفل الضَّريرة تشقُّ الليلَ العاري ،
وعذابُ الأم تغـالبُ النومَ الذي تشتهيـه لتَسكُبَ الحياة المُجـهدة من ثدييْها .
الأنفاسُ الملتهبة الصادرة عن شباب مكروب،
وزفرات النشيج المثقلة للعاطفة الحبيسة غير المستنفَدَة،
وجباه الرجال تتصبّب عرقًا وهي تفلح الأرض القاحلة.
وأسفًا لشيخوخة ذاوية عندما تنزع الحياة إلى القبر ، على الرغم من إرادة الحياة.
تأمّل . ها هو ذا الإنسان !
مخلوقٌ يتوالده الجوع ، ثم هو طعام سائغ لأرباب جَوْعى.
كـرمةٌ تزحـف على وجه الأرض في التـراب تحت أقـدام الموت الذي لا يموت .
نوّارةٌ تُزْهُر في ليالي الأطياف الشّريرة .
أعنابُ أيام الحزن والفجيعة، وأيام الرُّعب والعار.
وأنتم على هذا تطلبون إليّ أن أطعم وأرتوي ،
وتودّون لو جلستُ في حلقة تضمُّ وجوهًا مكفَّنة ،
وأن أنال خلودي من أيد ذابلة .
وأن أستلّ وجودي من بين شفاه متحجّرة.
السـرب الثالث أخويّ ، أخويَّ المرهوبيْن ،
يغوصُ الفتى في غنائه، يردّدُه ثُلاثَ ،



«نحو اللاّمتناهي»

فتعلو الأغنية ثُلاثَ .
صوته يهزّ الغابة ،
يشقّ السماء ،
يوقظ أحلام الأرض الناعسة.

السـرب الثاني (وهو دَوْمًا يَصُمُّ أذنيه)

تعنف النحلة على أذنيك بطنينها ،
ويستحيل العسلُ مُرًّا على شفتيك.
وكم ودِدْتُ لو خفّفتُ عنك ،
لكن أنّى لي ؟
القاع وحده يُصغي حين ينادي الأربابُ الأربابَ ،
فالهوّة الفاصلة بين الأرباب لا تُقاس ،
والفضاء بينهم لا تضطرب فيه ريح .
وإنني على ذلك وددتُ لو خفّفتُ عنك.
وجعلتُ فَلَكَك المكفهرّ بالغيوم صافيًا ؛
ومع أننا متساويان قُدرة وحُكمًا على الأمور،
فما أرغبني في أن أنصحك فأهديك.
حين خرجت الأرضُ من عماء الخواء ،
ورأى أحدنا الآخر ـ نحن أبناء بدء الخليقة ـ في هَدْي النور الخامد الشهوات،

أصـدرنا أول صـوت مكتـوم راجف أهاج التيـارات في الجـو والبحر.

ونطقنا بأول كلمة مزركشة تفصح عن الرغبة الواعية.

ثم خطونا ، يداً في يد ، فوق العالم الغضّ الهَرم.

ومن أصداء أُولى خطواتنا المترنّحة وُلد الزمان ،

الربّ الرابع ، تقفو أقدامه آثار أقدامنا ،

ويظلّل أفكارنا وأشواقنا فلا يُبصر إلاّ بعيوننا .

وإلى الأرض جاءت الحياة ، وإلى الحـياة جاءت الروح : اللحن المجنح للوجود .

ومَلَكْنا الحياة والروح ، ولم يكن ثمـة غيرنا يدرك عدد السنين ، ولا وزن أحلامها السديمية ،

إلى أن زَفَـفْنا البحـر إلى الشمـس حين بلغ الدهر السابع رائعـة ظهيرته.

ومن مخدع العُرس ، ومن ثمرة تلك النشوة خلقنا الإنسان ،

مخلوقـاً ما انفك يحمل سمـات سلفه الواهنة ، على الرغم من ضعفه وعجزه.

ومن خلال الإنسـان الذي يجوب الأرض وعـيونه مـصوبّة إلى النجوم، عثرنا على منافذ إلى مناطق الأرض النائية.

ومن الإنسان ، القـصبـة المتواضعـة النامية علـى شطآن الغدران المظلمة،

اتخذنا مـزماراً ننفخ في جوفـه الْمُفَرَّغ بصوتنـا ليسمعـه العالم الغارق في السكون.

ومن الشمال حـيث لا شمس ، إلى رمال الجنوب حيث تلهـبها الشمس

ومن أرض اللّوتس حيث وُلدت الأيام

إلى الجزر الخطِرة حيث تُذبح الأيام ،

ترى الإنسان ، ذلك الرعديد ، الذي لا يتهوّر إلا بمشيئتنا ،

يخاطرُ وبين يديه القيثار والحسام.

إرادتنا هي الإرادة التي بها يبشّر،

وسيادتنا هي السّيادة التي بها ينادي .

ومجاري حبّه التي يعبرها هي أنهار تصبّ في بحر تدبيرنا .

ونحن ـ فوق الذُّرى ـ نحلم أحلامنا خلال سبات الإنسان،

ونستحثّ أيامه لتغادر وادي الغسق المتنائي ،

وتنشد اكتمالها فوق الآكام .

بأيدينا زمام العواصف التي تكتسح العالم ،

وتستنهض الإنسان من السلام العقيم إلى الكفاح الْمُثْمر .

.... ومن ثم إلى النصر .

في عيوننا تكمنُ بصيرةٌ تحيلُ روح الإنسان إلى شعلة ،

وتقوده إلى عزلة متسامية وعرافة متمرّدة،

ومن ثَم إلى الصَّلْب.

وُلد الإنسان للعبودية،

وفي عبوديته يكمن شرفه وجزاؤه .

نحن ننشد في الإنسان ناطقًا بلساننا ،

وفي حياته ننشد اكتمال ذواتنا.

أيّ قلبٍ سيردّد صدى صوتنا إذا أصمّ التُّرابُ القلبَ البشري؟

ومَنْ سيَرى لألاءنا إذا أعْمَى الليلُ عينَ الإنسان ؟

وماذا تُراكم فاعلين بالإنسان ، طفلِ قلوبنا البِكر وصورة ذواتنا؟

السرب الثالث: أخويّ ، أخويّ الجبّارِيْن

لقد انتشت قدما الراقصة بخمر الأغاني،

وأشاعتا الحياة في الجو،

وانبعثت يداها ترفرفان محوّمتيْن كالحمامة في الفضاء

لكأنها تنشد الإمساك بطرف ثوب أحد أطياف الليل السريعة التّحليق.

السرب الأول: القنبرة تناجي القنبرة،

غير أن النسر يحلّق في العلا ، لايتوانى ولا يبالي بالإنصات إلى التغريد.

ولسوف تعلّمونني حب الذات يحمله الإنسان في تقديسه لي،

ويُقاس بخضوعه لي.

بيد أن حبّي لذاتي لا يُحدُّ ولا يُقاس.

ولن ترفعوني إلى ما يجاوز خلودي الموصول بالأرض ،

لأُقيمَ عرشي على هام السموات ،

وتنطوي ذراعاي على الفضاء وتحيط بالأفلاك.

كما لن تهبوني مدار المجرّة قوسًا ،

ولا المذنَّبات سهامًا ،

كي أغزو اللاّنهاية باللاّنهاية .

ما أنتم فاعلون، ولو كان في مقدوركم.

فكما كان الإنسانُ من الإنسان ،

يكون الأرباب من الأرباب.

بل إنكم لتجلبون إلى قلبي المكدود

ذِكْرى دورات انقضت في الضّباب ،

حين سعت روحي تنشد نفسها فوق الجبال،

وتعقّبت عيناي صورتيْهما في المياه الغافية،

على الرغم من أن أمسيتي ماتت وهي تَضَع،

ولم يبق إلاّ الصّمت وحده يطوف برحمها ،

والرمال التي نثرتها الرياح تُغَشّي صدرها.

إيه ليالي الأمس ، أمسيتي الفانية،

أمُّ ربوبيتي المصفَّدة بالأغلال .

أيّ ربّ أعلى أمسك بك وأنت تحلّقين

وجعلك تنسلين في قفص ؟

وأيُّ شمس جبّارة أدفأت حشاك كي تلديني ؟

لن أباركك ، ومع ذلك فإني لن ألعنك.

فكما حمّلتني عبء الحياة،

حمّلتُ أنا به الإنسان كذلك،

غير أني كنت أقل قسوة.

أنا الخالد ، قد جعلتُ الإنسان ظلاّ عابراً،

وأنت أيتها الفانية تصوّرتني لا أفنى .

يا ليالي الأمس ، الأمس الفاني ،

أ تُراك عائدة مع الغد النائي،

كيما أسوقك إلى ساحة الحساب ؟

ثم أ تُراك مستيقظة مع فجر الحياة الثاني ،

كيما أقطع ما بين ذاكرتك المتشبّثة بالأرض وبين الأرض ؟

وَدِدْتُ لو تنهضين مع كل موتى الزمن الغابر ،

حتى يختنقَ الثّرى بثمره المرّ ،

وحتى تركدَ مياه البحار جميعا بأجداث الهالكين فيها.

وحتى يستنفدَ الهولُ بعد الهول خصب الأرض فيتبدّد سُدى.

السرب الثالث | أخويّ ، أخويّ المقدّسين،

لقد سمعت الفتاةُ النشيد ،

وها هي ذي تبحث عن الشّادي.

فانبعثت كظبي الغاب استخفّه مرحٌ طارئ،

تقفز فوق الصخور والجداول،

وتتمايل ذات اليمين وذات اليسار .

يا للسعادة في نيّةٍ يَحُفُّ بها الرَّدى،

وفي تطلّع رغبة لم تتمّ ولادتها ؛

وفي بسمةٍ على شفة ترتعش ،

بما ترقب من متعة وُعِدت بها !

أيّة زهرة تلك التي سقطت من السماء ،

أيّ لهب ذلك الذي انبثق من الجحيم ،

فبَهَرا قلب السكون بما سرى فيه

من فرحة ورهبة تلهثان ؟

أيّ حُلم هذا الذي حلمنا به فوق الذُّرى ،

وأيّة فكرة تلك التي وهبناها للرياح ،

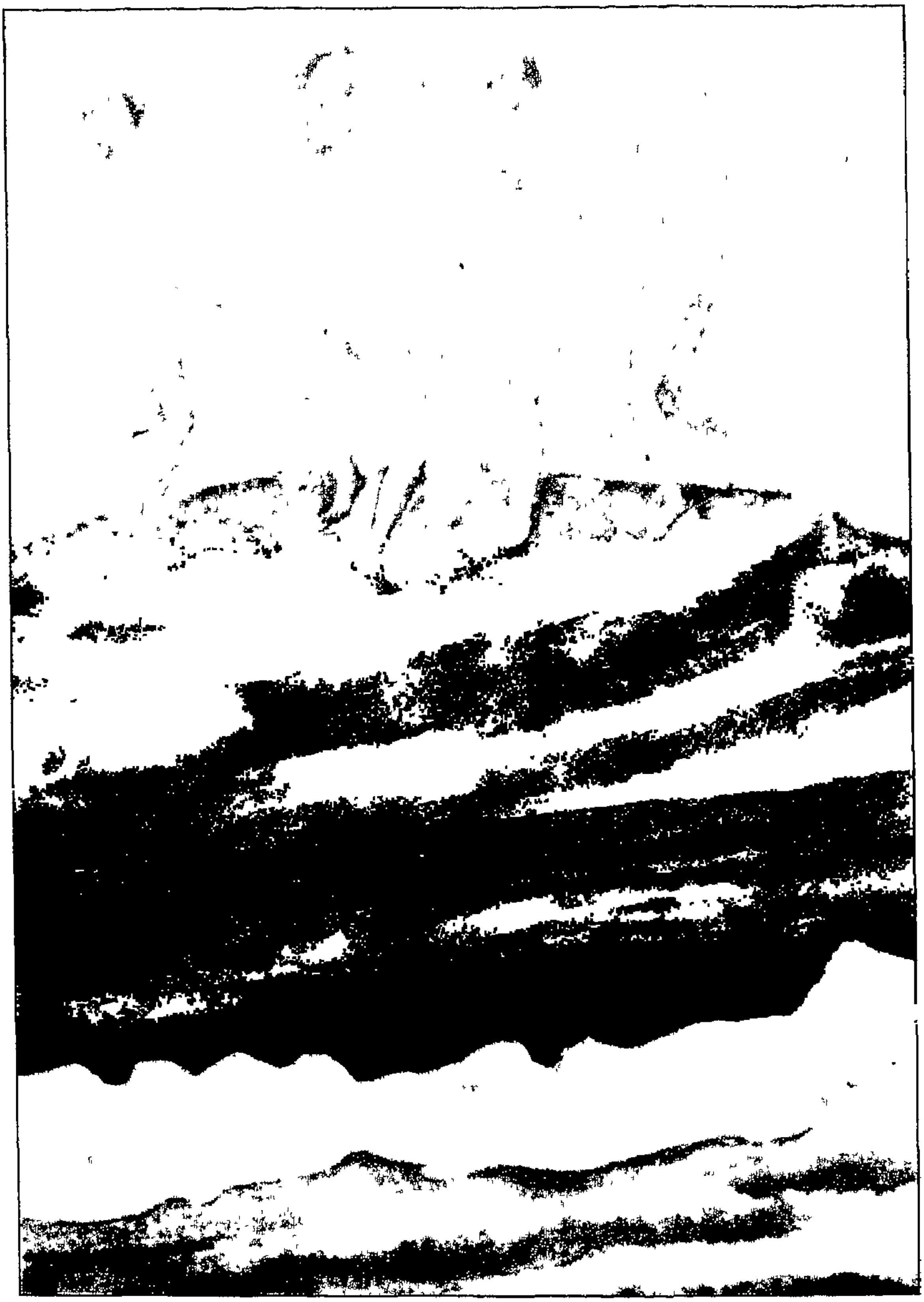
فأيقظت الوادي النعسان

وجعلت الليل أرِقًا يترقّب ؟

السرب الثاني | لقد أُعطيتَ المنوال المقدّس ،

ونُحتَ يد الصنّاع تنسج بها الثياب،
فالمنوال والصَّنعة لك أبد الآبدين.
ولك الخيْط ، قاتمُه وناصعُه،
الأرجوانيّ والمُذَهَّب ملْكُ يمينك ،
لكنك مع هذا لا تتّخذ ثوبًا إلاّ مُكرهًا .
وعلى غرار عالَمٍ أتى عليه الحريق تندب عُريَك المغَشّى بالرَّماد.
لقد غـزلتْ أيديكم الجَسـورة العطوفة روحَ الإنسـان من الهواء الحيّ والنار ،
وأنتم على هذه تودّون الآن لو تقطعون الخيط ،
وتُعبرون أصابعكم الماهرة إلى الخلود الخامل.

السـرب الأول | أجل ، لأمُدَّنَّ يديّ إلى الخلود الذي لم يستو بعدُ على صورة،
وأضع قدميّ على أرَضِين لم تطأهما من قبل قدمان .
ما أروع المتعة في الإصغاء إلى الأغاني التي كثُر تردادها ،
والتي تتلقّف ألحانها الآذانُ الواعية قبل أن تُسلمها الأنفاس إلى الرياح.
إن قلبي مشوق إلى ما لا يستطيع أن يتخيّله،
وإلى المجهول حيث لا تقرّ الذاكرة.
وددتُ لو أوفدتُ روحي إلى المجهول حيث لا ذاكرة .
بربِّك لا تُغْرِيَنّي بمَجْدٍ زائل،



«وئام وائتلاف فوق القمة»

ولا تسعينّ لتُسرّي عنّي بأحلامك أو بأحلامي ،
لأن كل ما أنا عليه ، وكل ما هو قائم على الأرض ،
وكل ما سيقوم ، لا يُغْريني.
يا نفسُ ،
إن وجهَك لجامد ،
وفي مِحْجريْ عينيك تغفو أطياف الليل آمنة .
غير أن في سكينتك الهول،
والهول أنت.

السرب الثالث

أخويّ ، أخويّ المهيبيْن ،
لقد وَجَدَتِ الفتاةُ الشّادي ،
تتطلّع إلى وجهه الطافح بِشْرا.
تنساب بين الكرمة والسّرخس كالنَّمر بخطوات مُحْكَمة.
تحملق في شبابه بثغر فاغر وعين مشدوهة .
أخويّ ، أخويّ الغافليْن ،
أ ربٌّ آخر غارقٌ في أشجانه ،
ذاك الذي حاك هذا النسيج من قُرمز وأبيض ؟
أيٌّ لجم جامح ذلك الذي ضلّ الطريق ؟
سِرُّ مَنْ هذا الذي يفلق الصُّبح من الليل ؟
ويَدُ مَنْ تلك التي تعلو عالمنا ؟

يا نفسُ ، يانفسُ ،

أيها الفَلَك المشتعل الذي يطوّقني ،

أنّى لي أن أدلَّك على طريقِك،

وإلى أي فضاء أُهْدي شوقَك ؟

يا نفسُ ، يا مَن لا أليف لها ،

في جُوعِك تنهشين ذاتك،

وبدموعك تودّين لو رويت غُلَّتك،

فإن الليل لا يجمع قطرات نداه في كأسك ،

والنهار لا يحمل إليك ثماره.

يا نفسُ ، يا نفسُ ،

أيتها السفينة المُرساة المُثقلة بالرغبات ،

أنَّى لك الريح لتنشر شراعك ،

وأيّ مدٍّ عال سيوجّه دفّتك ؟

فما أن تُرفع مرساتك حتى ينبسط جناحاك.

على أن السموات من فوقك ساكنة،

والبحر الساكن، من سكونك ساخر.

أيّ أمل هنالك بقى لي أو لك ؟

أي تبديل فى الأرَضِين أو أي مغزى جديد فى السموات ،
سيدعوانك؟

تُرى هل يحملُ رَحِمُ اللانهائية العذراء نُطفة « المخلّص » ،
ذاك الذى هو أسمَى من بصيرتك،
ويدُه ستحرّرك من قيود أسْرِك؟

السرب الثاني

أمسِكْ عن صراخك المُضجِر ،
واكتم أنفاسَ قلبِك المضطرم،
فإن أُذنَ اللانهاية صمّاء ،
وشيمةُ السماء ألاّ تبالي .
نحن من وراء العالم محيطون ونحن « العليّ المتعال »
وليس ثمة بيننا وبين الخلود غير المحدود إلاّ رؤانا التي لم تستو على صورة .... وغاياتها الناقصة.
أنت تستحضرُ المجهول ،
والمجهول الملفوف بالضباب السائر يقطن في السويداء من نفسك.
أجل . ففي السويداء من نفسك يرقد « المخلّص » غافيًا ،
وفي غفوته يُبصر مالا تقوى عينُك اليَقْظى أن تبصره.
ولعَمْري هذا هو سرّ وجودنا .
أتُراك مخلّفًا حصادك لمّا يُجمع بعد ،
كي تنثر عَجِلاً البذور من جديد في الأُخدود الحالم ؟
ولماذا تنشر سحابك فى الآفاق الموحشة التي لم تطأها قدم ؟

على حين يجدّ قطيعُك في البحث عنك ، ويودّ أن يجتمع في رحابِك .

تدبَّرْ ،وأنْعِم النظر فيما تحتك من العالم ،

وانظر أطفال حبّك الذين لمّا يُفْطَموا.

الأرض مهادُك والأرض عرشُك ،

وهنالك في العُلا فيما هو أبعد من آمال الإنسان

تُمسك يدُك بمصيره.

ولا إخالك متخلّيا عنه ؛

ذلك الذي يكدّ في سبيل الوصول إليك ،

من خَلَل البهجة ومن خلل الألم ،

ولا إخالك تنأى بوجهك عن العَوز الذي تنمّ عنه عيناه.

السرب الأول تُرى هل يضمّ الفجرُ قلبَ الليل إلى صدره ؟

أو هل يبالي البحرُ أجسادَ موتاه ؟

إن روحي تنهض في نهوض الفجر متجرّدة متحرّرة.

وكالبحر المضطرب يطرح قلبي حطامًا فانيًا من الإنسان والأرض.

لن استمسك بما استمسك بي ،

بل سأتعالَى إلى ذلك الذي يتعالَى إلى ما فوق مقدوري.

السرب الثالث أخويّ ، انظرا يا أخويّ،

ثمة روحان تنشدان النجوم تلتقيان في السماء وجهًا لوجه .

في صمت يحملق أحدهما إلى الآخر.

لقد كفّ الشّادي عن الغناء ،

ومع هذا فإن حلقَه الذي ألهبته الشمس يخفق بالأغنية ،

ولاتزال الرقصةُ المرحة في أطراف رفيقته لابثة ،

لكنها غير غافية.

أخويّ ، أخويّ

الليل يدلهمّ

والقمر يشتدّ وميضه،

وبين المروج والبحر

صوتٌ راجف يدعوكما وإيايْ .

الــــرب الثاني أبِنَا أن نكونَ وأن ننهَضَ وأن نُصْلَى بالشمس المُحرِقة،

ثم أبِنَا أن نعيشَ ونرقُبَ ليالي الأحياء كما ترقبنا عين الجوزاء ؟

ثم أبِنَا أن نواجه الرياح الأربع برأسٍ متوّج متعال ،

وأن نُبرئَ الإنسـان من أمراضـه بأنفاسنـا التي لا شهيـق لها ولا زفير؟

صانعُ الخيام يجلس إلى منواله في وجوم ،

وصانُع الفخار يدير عجلته غير مبال ،

أما نحن ذوي اليقظة وذوي العلم

فقد أفلتنا من الحَدْس ومن المصادفة.

نحن لا نكفُّ ، بل لا نسكنُ سكينة من ينتظرون توارد الأفكار.

ونحن أسْمَى من كل التساؤلات القلقة .

فلنهنأ بالاً ولندعْ الأحلامَ تَجْري في أعنّتها.

ولنُخَلّ بيننا كالأنهار تصبّ في المحيطات،

لا تجرحها أسنّة الصخور.

وعندما نبلغ من المحيط لُجّةً فيبتلعنا،

لن يكون ثمة مجال للخصام والتفكير في غد .

ويْلي مما أعانيه من هذه الكهانة التي لا تنقطع،

وهذا السّهر الذي يُسلم النهار إلى الشَّفَق ،

ويدفعُ الليل إلى الفجر .

ويْلي من مَدّ التذكّر ومدّ النسيان كلاهما لا يريم.

ثم ويْلي من بذور الأقدار التي لاتنفك تُبذَر ، ثم لا يُحصد منها غير الآمال .

وَوَيْلي من الذات تُستنهض من التراب إلى الضّباب على وتيرة واحدة ،

ليس إلا لتحنّ إلى التراب وتهوي مَشوقة نحو التراب ،

ثم هي لا تلبث ، مدفوعةً بشوق أكبر ، أن تنشدَ الضباب من جديد.

وويْلي من تقدير قياس الزمن دون التزام بالزمن .

هل لزام علـى روحي أن تغـدو بحـراً لا تنـفك تيّـاراته يُربك بعضها البعض ،

أو أن تغدو فضاء تنقلبُ رياحُه المتطاحنة إعصاراً ؟

لو كنتُ إنسانا ، شَظيَّةً ضالّة ،

إذن لتلقّيتُ هذا كله صابراً.

أو لو كنت « الإله الأعلى »

الذي يملأ فراغ الإنسان وفراغ الأرباب ،

لكنت قد حقّقت ذاتي.

لكنكما ولكنّي لسنا من البشر ،

ولا نحن الإله الأعلى.

لسنا إلا غَسَقًا يعلو أبدًا ويهبط أبداً بين أفق وأفق.

وهل نحن إلا أرباب نقبضُ على زمام عالمٍ هو قابض على زمامنا؟

أقدارٌ تبعث الصوت في الأبواق ،

على حين تأتي الأنفاس وتأتي الأنغام من مكان قصيّ.

إني لمتمرّد.

وددْتُ لو استنفدتُ ذاتي إلى أن أغدو خاويا،

وددتُ لو أذبتُ ذاتي بعيدًا عن بصرك،

وبعيدًا عن ذكرى هذا اليافع الصامت ، شقيقنا الأصغر،

هذا الذي يجلس إلى جوارنا يتطلّع إلى ذاك الوادي .

ومع أن شفتيه تتحركان فهما لا تنبسان بكلمة واحدة.

الــــرب الثالث | ها أنذا أتكلمُ يا أخويّ الغافليْن ،

لا أنطق إلاّ حقّا ،

بيد أنكما لا تصيخان إلاّ لما تقولان ،

أهيبُ بكما أن تتطلّعا إلى رفعة مقامكما ورفعتي،

لكنكما تستدبران وتُغلقان أعينكما،

وتترنّحان على عرشيْكما.

أيها الحاكمان المتطلّعان إلى سيادة العالم العلوي والعالم السفلي ،

أيها الربّان الموغلان في الأنانية ، اللذان لا ينفك أمسهما يحسد غدَهما،

أيها الضّجران من ذات نفسيْكما ، تحاولان بالثرثرة أن تُغْرِقا سورة غضبكما، وتَسوطان فَلَكَنَا بالبروق .

إن العداء المستعرّ بينكما ليس إلا صوت قيثارة عريقة،

كادت أصابعُ « المتعال » تنسى العزف على أوتارها.

ذاك الذي اتخذ من الجوزاء قيثارة ومن الثريّا صنوجًا.
وهو إلى وقتنا هذا الذي فيه تُهمهمان وتُدمدمان،
تطنّ قيثارته وتُصَلصِل صنوجه.
أناشدكما العهد ألا أصغيتما إلى أغنيته.
انظرا .... هاهما ذا الفتى والفتاة ،
نارٌ على نار،
في نشوة عارمة كالحديد اعتراه البياض من سعير النار .
جِذْران يرضعان من ثدي الأرض الأرجوانية،
وزهرتان متوهّجتان على صدر السماء.
وهل نحن إلاّ الثّديْ الأرجواني ؟
وهل نحن إلاّ السماء العانية؟
روحنا جميعًا ، وكذلك روح الحياة ، روحكما وروحي ،
تسكن في هذه الليلة ذاك الصَّدر الملتهب ،
وتكسو جسد تلك الفتاة الطّاهرة برداء من الأمواج المضطربة.
إن صولجانكما لا يَقْوَى على أن يطوّح بهذا المصير المقدَّر لنا .
وضجركما ليس غير طموح ،
وليذوبنّ هو وكل ما على شاكلته
في عشق ذَكرٍ وأنثى .

انظر كيف ترقص ريحُ المشرق بقدميْها الرشيقتين ،

وكيف تنهض ريح المغرب مترنّمةً بأغنيتها.

انظر إلى هدفنا المقدّس وقد تربّع على عرشه ،

مُستسلمًا مثل روحٍ تشدو بين يديْ جسد يرقص .

السرب الأول | لن أطلّ على ما تحتي من أرض هي في الحق تصوُّر طريف في خَلَدِ الخالق،

ولا على أبنائها في صراعهم الأليم المتعثّر ذاك الذي تدعونه الحب.

وما هو الحب ؟

هل الحب غير طبل ذي دويٍّ مكتوم يهْدي الموكب الغفير للأوهام العذبة نحو صراع أليم متعثّر آخر ؟

لن أطلّ على تحت .

أي شيء هناك يُرى ؟

سوى رجل وامرأة في غابة لم تَنْمُ أشجارها إلاّ لتوقعهما في الشّرك

علّهما ينكران ذاتيْهما ،

وينْسلان خَلْقاً للغد الذي لم يولد بعد .

السرب الثالث | ويلاه من بلاء المعرفة ،

إنها القناع المعتم للفضول والتساؤل أسدلناه على العالم،

وهي التحدّي للسماحة البشرية.

قد نضع تحت شاهد قبر تمثالاً من شمع،
ونزعُم أنه من طين خُلق،
فنَدَعُه في الطين يُدركُ آخرتَه.
وقد نحمل في أيدينا لهبًا أبيض
ثم نناجي أنفسنا : ألاَ إنه جزء من أنفسنا يعود ،
نَفَسٌ من أنفاسنا كان قد ولّى هاربًا ،
وهو الآن على أيدينا وفوق شفاهنا استقر، ليكون أعبق أريجا.
أخويّ يا ربَّيْ الأرض
إننا وإن كنا متسامين فوق الجبال،
لَفِي الأرضِ لا يزالُ مربطُنا،
من خلل نزوع الإنسان إلى تلك الساعات الذهبية الدائرة في مصير الإنسانية.
تُرى هل تغتصب حكمتنا لمحة الجمال من عينيه ؟
تُرى هل تقوده أنغامُنا بعد تأجّج هواه إلى الإخلاد للسكينة؟
أم تُراها تُخضعه لسطوة هَوانا نحن ؟
ماذا هي فاعلة حشود فكركم،
حيث يجتمع الحب بحشده اللّجب ؟
أولئك الذين وقعوا أسرَى الحب،
وفوق أجسادهم مرّت عجلته

من بحر إلى جبل،

ثم من جبل إلى بحر.

لا يزالون حتى الآن في شبه عناق مشبوب خَفِر ،

ينشقون العطْرَ المقدس كأوراق تُويْج تشابكت.

وحين تتَّحد روح بروح يحسّون نبض الحياة،

وفوق جفونهم ترتسم ضراعةٌ نحوكما ونحوي.

الحب ليلٌ انحنى في خشوع أمام خميلة مقدسة،

وسماءٌ استحالت روضة ، بل هو النجوم كلها قد استحالت يَراعًا .

في الحق إننا نحن المكان القصيّ،

ونحن « العليّ المتعال »،

غير أن الحب يُعْيي تساؤلنا،

ثم هو يفوق أغنيتنا تحليقًا.

السرب الثاني | أتراك تطلب لنفسك فَلَكًا بعيدًا ؟

فلا تُعنِ إذن بهذا الكوكب،

حيث غرستَ بذرَة قُدرتك.

فليس ثمة « مركز » في الفضاء

إلا حيث تُزفّ ذاتٌ إلى ذات،

والجمالُ شاهدُ هذا العرس وكاهنه.

انظر،تَرَ الجمال منتثرًا حول أقدامنا،
نملأ منه الأيدي لنُخْزي به الشفاه.
إن أبعدَ الأشياء هو أقربُها.
وحيث الجمال ، يكون كل شيء.
أيها الأخ المتسامي بأحلامه،
عُدْ إلينا من حدود الزمن الجَهِمة .
أطلق سراح قدميْك من ربقة اللامكان واللازمان،
وأقمْ معنا في ظل هذه الطمأنينة،
التي شيّدتها يدُك وأيدينا مشتبكات حجرًا فوق حجر.
اخلع عنك ثوب التأمل المحزون،
وانضم إلى جماعتنا ، نحن وُلاة الأرض الفتيّة ،
تكسوها الخضرة ويشيع الدفء في جنباتها .

السرب الأول | أيها المحراب الخالد!
هل تريد حقّا ربّا يكون لك قربانًا هذه الليلة ؟
ها أنذا آت .
وحين أفعلَ أقرّبُ الأضحية : حبيّ وألمي.
ها هي ذي الراقصة ، وقد قُدّت من شوقنا العريق ،
وها هو ذا الشّادي يترنّم بأغانيّ أنا إلى الريح.
وفي هذا الرقص وذاك الغناء يُذْبَحُ في سريرتي ربّ.

إن « قلبي ـ الرّب » الحالّ بين ضلوعي

لينادي « قلبي ـ الرّب » الحالّ وسط الأثير.

وإن هَوان البشرية الذي طالما أكدَّني لَيَضْرع إلى الربوبيّة.

وإن الجمالَ الذي نشدناه منذ البداية ليضرع إلى الربوبيّة.

أطعتُ فَقَدَرْتُ الضراعة،

وإني الآن لمذعنٌ مطيع.

الجمال طريق يؤدي إلى الذات التي قتلتْ ذاتها.

اغمز أوتارك ،

فإنني على أُهبةِ السَّير على الطريق .

فهو أبدًا يُفضي إلى فجر جديد.

السرب الثالث | النصر للحب !

إن الحب سواء كان بياضًا طاهرًا أم سُندسًا أخضر على حافة بحيرة،

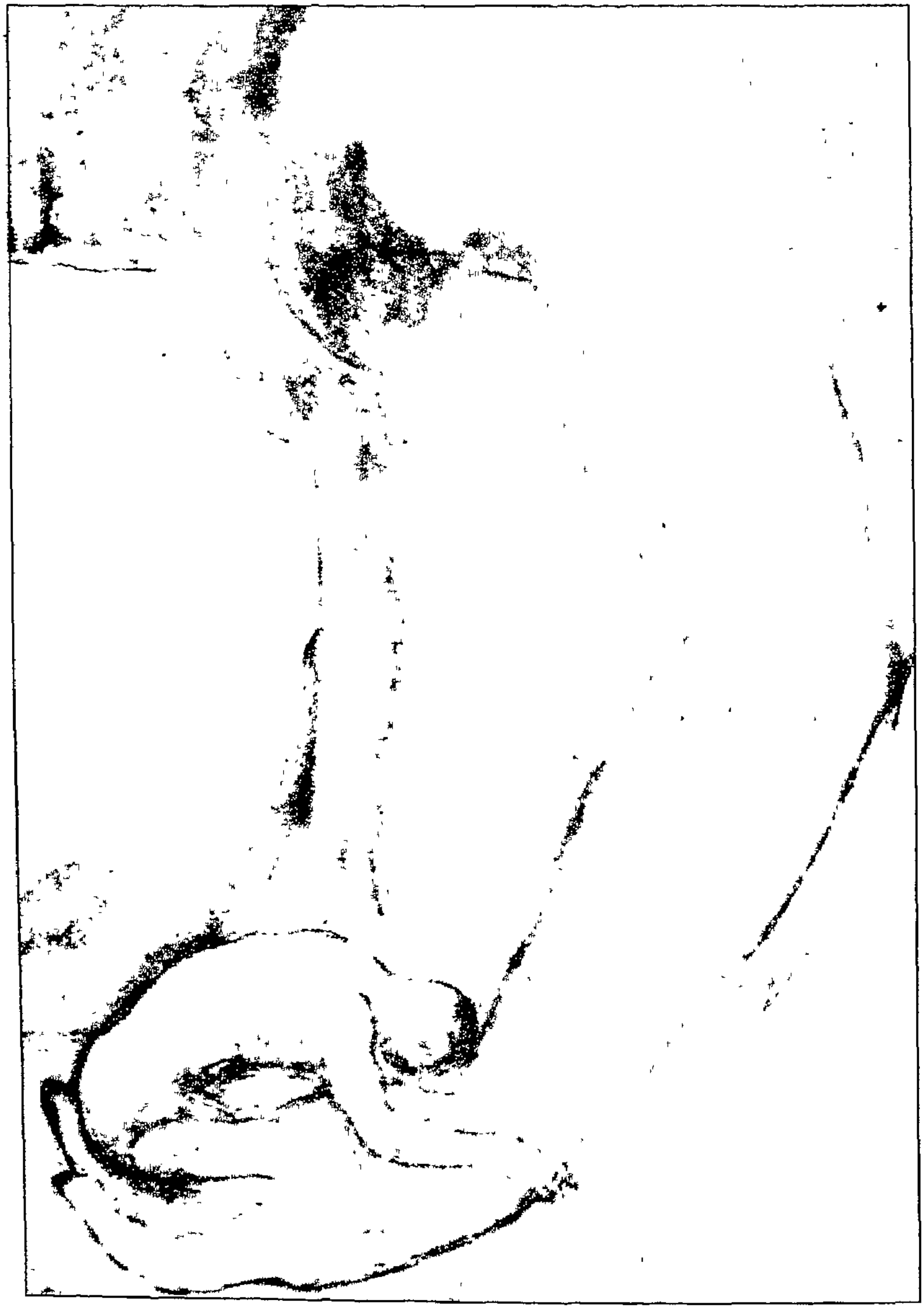
وسواء أ كان جلالاً شامخًا في الأبراج والشُّرفات،

أم كان الحب في حديقة تغصّ بالزائرين أو صحراء لم تَطَأْها قدم،

فهو هادينا ومُرْشدنا.

إنه ليس مجرّد شهوة من شهوات الجسد العابثة،

ولا هو خمود الرغبة بعد صراعها مع النفس .



«الأزليَّة والإنسان»

كما أنه ليس جسدًا يمتشق الحسام في مواجهة الروح.

الحب لا يعرف التمرّد،

غيـر أنه يهجـر طريق الأقدار الغـابرة المطروق إلى الطريق غـير المطروق للحَرَجة المقدّسة،

كي يرقص ويصبّ غناءه في آذان الأبدية.

الحب شباب تحطّمت أغلاله ،

وفتوّة تحرّرت من أسْر الأرض،

وأنوثة يُدفئها اللّهب،

مشرقة بضياء سماءٍ أبهى من سمائنا.

الحب ضَحِكٌ ينبثق من أغوار دفينة في ثنايا الروح.

وغزوة ساحقة تُهدهدك حتى يوم يقظتك.

الحب فجر جديد فوق الأرض ،

ونهار لم يقع عليه نظرك ولا نظري بعدُ،

لكنه استكنّ في محراب قلبه الأكبر.

أخويّ ، أخويّ

العروس آتيةٌ من جوف الفجر،

والعريس مُقبلٌ من الغروب

فثمة زفافٌ في الوادي .

إنه يوم أفسح رحابًا من أن تُسجَّل أحداثه.

السرب الثاني | هكذا الحال منذ أخْلَى الصباح الأول سبيلَ النجود لتنحدر نحو التل والوادي .

وعلى هذا ستكون الحال حتى المساء الأخير.

إن جذورنا قد دفعت بأغصانها الراقصة في الوادي ،

ونحن الزهرات التي يفوح منها أريج الأغنية الصاعدة إلى الذرى.

الخالد والفانى توأمٌ.... نهران ينشدان البحر.

ليس ثمة فراغ بين نداء ونداء ،

إلا في الأذن فحسب.

الزمن يوطّد إصغاءنا ،

ويَشْحَذ اشتياقه.

الشكّ وحده في كل ما هو فان هو الذي يُخرس الصوت.

أما نحن فقد سَمَوْنا عن الشّك،

فالإنسان وليُد قلبنا الأصغر.

والإنسان ربٌّ يسمو في هوادة وأناة ،

وبين أفراحه وأتراحه نخلدُ إلى النوم، وتهجع معه أحلامنا.

السرب الأول | دع المغنّي يشدو ، والراقصة في دورانها تُسْرِع ،

ودعني أسعد لحظة.

دع روحي تنعم بالهدوء هذه الليلة،



«الراقصة»

فلربما أغفو ،

وفي غفوتي أرى عالمًا أكثر إشراقًا ،

ومخلوقات أكثر تألقًا تنحدر إلى خَلَدِي.

السرب الثالث

لأنهضنَّ الآن متحلّلا من قيود الزمان والمكان،

ولأرقصنّ في ذاك الدَّغل الذي لم تدُسْه قدم،

ولتتحركنَّ قدما الراقصة مع قدميّ،

ولأغنينّ في الأعالي ،

ولينطلقنّ صوتٌ إنسيّ يمازجُ صوتي.

لنعبرنّ إلى الشَّفق المترامي،

فلقد نستيقظ على فجر عالم آخر.

لكن الحب باق

وبصماته لن تزول.

إن المصهر المبارك يضطرم،

وإن الشَّررَ يتطاير ، وفي كل شرارة شمس.

أَوْلَى بنا وأحْجَى أن نسعى إلى رُكن في الجبل ظليل ، لنهجع ونحن أربابُ الأرض ، ثم لندع الحب الذي هو إنسيٌّ والذي هو واهن ، يُملي إملاءه على ما سيأتي غداً..

أقوال النقاد في هذا الكتاب

« عندما يستقبل الإنسان الموت ، فإنه يتوجّه بالرعشات الأخيرة في عينيه وبالخفقات الأخيرة في قلبه إلى السماء يسأل الله رحمة ومغفرة . أما البجعة فإنها عندما تحسّ دنو أجلها تغنّي لحنا حزينا كأنه نشيد جنائزي تنعي به نفسها وهي تودّع الحياة . ولهذا استعار عالم الأدب من عالم البجع الكلمة ، وجعل يطلق على العمل الأخير في حياة كل أديب أو شاعر أو موسيقي أو مصور أو مثّال « أغنية البجعة » .

وأغنية البجعة في حياة الشاعر المتصوّف جبران خليل جبران هي كتاب «أرباب الأرض » الذي ينفح به المكتبة العربية اليوم صديق جبران الأول في هذا الجيل ، الدكتور ثروت عكاشة ، وينقله إلى العربية بنفس الأمانة التي نقل بها آثار جبران السابقة . . وإنك لن تجد في غضون الترجمة شيئا يغض من أمانة النقل إلاّ لحساب عذوبة الجرس ، فهي تحلية للأصل ، لا خروج عليه »

صالح جودت

« . . . هو آخر كتاب من مؤلفات جبران نقله الدكتور ثروت عكاشة إلى اللغة العربية . ولكنه في الحقيقة لم يفعل ذلك وإنما نستطيع أن نقول إنه قد خلق للكتاب مثلما خلق لما سبقه « النبي » و « حديقة النبي » لغة عربية رقيقة نادرة الرقّة يصوغ بها أفكار ذلك الشاعر وخلجاته . . إن جبران شاعر ولكنه يكتب بروح إله مسئول عما في هذا الكون من خير ومن شر مسئولية الصانع

الخجل من صنعه أحيانا الراضي عن نفسه في معظم الأحيان . إنه في كتابه هذا يتحدث عن الأرباب الثلاث التي تحكم طبيعة البشر وما بينهم من صراع للاستيلاء على مقوده، ولكنك تحس أن الشاعر هو الإله الأعظم المختفي وراء أربابه الثلاثة . الشاعر هو الفنان المتألّه ، وحتى ألوهيته ليست من خلقه وابتكاره ، ولكنها صدى وظل للألوهية المسيحية ، وكأنما الشاعر يريد بها أن يصنع من شعره وحكمته قصيدة كبرى يعارض بها قصيدة ذلك الإله، وهو بالضبط ما كان يضايقني كلما قرأت جبران . إنك لا ترتاح إلى قرب الآلهة كثيرا إذا كنت إنسانا مثلي ، خاصة وأنت تعلم وتدرك تماما أنه ليس إلها حقيقيا بقدر ما هو آدمي مثلك . كل الفرق أنه يدّعي الألوهية ويتألّه ، ولولا أنه شاعر عظيم لضاقت نفسك به ضيقها بكل ادعاء» . .

يوسف إدريس

« . . . الظاهرة التي نقف عندها هي اختيار الدكتور ثروت عكاشة للطريق الصعب في عالم الثقافة . إنه يرتفع عن ضجيج الحياة ويختار عالمه الفني الحالم، ويعيش مع موسيقى ڤاجنر وأدب برناردشو وشعر جبران ، ويحدّد مسئوليته في ترجمة هذه الكتب بأسلوب يرتفع من دقته وروعته إلى مستوى التأليف . . . ويتم ذلك في ثقة وهدوء بعيدا عن صخب المثقفين . . »

أحمد حمروش

« لقد آب الغريب النازح إلى وطنه الحبيب ، عادت ذخيرة من أنفس ذخائر العرب إليهم . ولئن كرّم المكرمون ثروت عكاشة من أجل هذه الترجمة المشرقة الجميلة التي دلّت على براعة وعبقرية وعلو كعب فإني أحيّيه على ما أثرى به اللغة العربية بهذا النقل ، وعلى ما يسّر لذلك الغريب النازح من العودة إلى أهله وذويه ».

العوضي الوكيل



ص.ب ٣٣ البانوراما ـ تليفون ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠٩٦١)